

حلقات الدروس في مساجد كيرالا

س ك عبد الرحمن الفيضي الأزهري أريفرا

المدرس، مسجد الجامع، آلتور فادي، ملابرام

الحمد لله الذي هدانا إلى دين الاسلام، وجعل لنا المساجد مقر العلوم والسلام، والصلاة والسلام على من بعث معلما إلى كافة الأنام، وعلى آله وأتباعه الأعلام، الذين عمّروا مساجد الله بالدروس، وأزالوا من بقاع الأرض الظلام، وبعد.

حلقة التدريس في المسجد النبوي

فإن التدريس في المساجد من سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث بنى مكانا مظللا في مؤخر المسجد النبوي لأهل الصفة الذين هاجروا إلى المدينة المنورة وحبسوا نفوسهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وما زالوافي مسجده يتعلمون الكتاب والسنة. وكانت الأنصار الذين كانوا يسكنون في المدينة مشاركين مع المهاجرين الفقراء في مدرسة النبي صلى الله عليه وسلم بعد فراغهم من الأشغال في الحقول والمزارع التي حوالي المدينة وكما كانوا يترددون إلى المسجد النبوي لأداء العبادات مع الرسول صلى الله عليه وسلم يترددون اليه لمعرفة أحكام الإسلام وكانوا ينفقون على الفقراء المهاجرين.

ولما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه الذين شاركوا معه في حجة الوداع يوم عرفة في خطبته التاريخية بقوله " فليبلّغ الشاهد الغائب فرب مبلّغ أوعى من سامع...." خرجوا في سبيل الدعوة إلى الله يبلّغون رسالة النبي صلى الله عليه وسلم شرقا وغربا. وبنوا مساجد كثيرة في أرجاء العالم ونشروا فيها العلوم الدينية من الكتاب والسنة.

حلقة التدريس في مساجد كيرالا: ويبدأ تاريخ الدرس المسجدي الجاري في كيرالا حين افتتح أول مسجد في شبه القارة الهندية وذلك في كودونغلور يوم الاثنين،

٢٢ رجب سنة ٢٢هـ تحت رئاسة مالك بن دينار رضي الله عنه وأتباعه. وقيل أسس المسجد الجامع ماداي في محافظة كنور سنة ٥ هـ كما نقش ذلك في المسجد. ثم تتابع بناء المساجد حسب نداء الوقت بسطوع ضوء الإسلام جنوبا وشمالا وشرع منها التعليم الديني في كل محلة يسكن فيها المسلمون لأنهم أينما كانوا لابد لهم من مسجد يجتمعون فيه للنشاطات الدينية كأنه قطب يدور حوله رحى الحياة الإسلامية. ولأن العلم حياة الإسلام ولا قوام له إلا بالعلوم الشرعية، ولكن ليس عندنا تاريخ مكتوب حول أوضاع الدروس وأحوال العلماء في القرون الأولى قبل سنة٦٠٠هـ.

وأول درس عرف في تاريخ مليبار تدريس الشيخ الفاضل محمد بن عبد الله الحضرمي القاهري سنة٦١٥هـ في مسجد شاطئ البركة الكبرى تانور. وازدهرت الدروس في بلدة فناني في القرن التاسع الهجري بخدمات المخدومين وكان الدرس الجاري في المسجد الكبير الذي بناه الشيخ المخدوم أحمد الكبير رحمة الله عليه مشهورا في العالم الاسلامي سار إليه الطلبة من داخل الهند وخارجها حتى لقبت فناني بـ"مكةمليبار" لمكانتها المرموقة في نشر العلوم الإسلامية تحت الفقهاء المخدومين الذين جاؤوا من بلدة يمن واستوطنوا في سواحل مليبار واعتبروا الجلوس عند المصباح المعلق وسط المسجد الكبير إجازة للتدريس والافتاء بعد استكمال حلقات الدروس من المخدومين.

وهذه الطريقة المتبعة في مليبار من أول يوم حظيت باستبقاء الإسلام وترحيب دعاته النبوية سببت لإنجاب عدّة علماء نابغين في مختلف الفنون الذين قاموا بخدمات جليلة للدين الإسلامي وللأمة المسلمة. ولهم تصانيف جمة ومتنوعة باللغة العربية وكان بعضهم شعراء فائقين في العربية كلهم تخرجوا من الدروس المسجدية واستمر نظام الدرس إلى يومنا هذا بين مد وجزر وانحطاط وارتفاع. وكان كلما غرب درس مشهور من مكان طلع آخر في محلة أخرى.

وهكذا صارت المساجد منذ القرن الأول منارات علم وهدى ينشر عرفها إلى أنحاء المحلة وكان الناس يوقرون العلماء ويحبون المتعلمين ويعدّون الانفاق عليهم شرفا وطريقا إلى الجنة بمحبة العلم وأهله اتباعا للسنة النبوية في تنظيم الطعام لأهل الصفة من بيوت الأنصار التي حوالي المسجد النبوي. وليس بخاف دور حركة التدريس في المساجد في نشر الثقافة الإسلامية وتوعية الأمة المسلمة وتعيين

مصيرها ومقاومة الفكر المنحرف والتيارات الهدامة مثل الإلحادية والشيوعية والقاديانية والاستعمارالأوربي المسيحي ولا يخفى مثل هذه الأمور لمن له أدنى ممارسة بالتاريخ الاسلامي في كيرالا. وتستمر هذه الحركة المباركة والتراث الخالد كابرا عن كابر حتى يأتي أمر الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

مميزات الدروس في المساجد

ومن مميزات الدراسة في المساجد أنه سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين لأنهم جعلوا المساجد منارا لهدى ومراكز العلوم. ولقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على حضور مجالس العلم في المسجد فقال"...وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده...."(رواه مسلم). وقال " من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرا وليعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله ومن دخل لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له"(رواه أحمد).

يقول د/ القرضاوي " فكان المسجد النبوي مدرسة الدعوة الإسلامية الأولى ودار الدولة الاسلامية الكبرى. تلك المدرسة التي فتحت أبوابها لمختلفي الأجناس من عرب وعجم ومختلفي الألوان من بيض وسود ومختلفي الطبقات من أغنياء وفقراء ومختلفي الأسنان من شيوخ وشباب وغلمان"(العبادة في الاسلام ص٢٣٣)

ففي الدروس المسجدية اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنه امتثالا بقوله تعالى " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم."(التوبة١٠٠).

ومنها تشغيل بقعة مباركة في استفادة العلوم الشرعية لأن المساجد لما كانت أحب البلاد إلى الله وأفضل بقاع الأرض كان التدريس بها أولى ومنها تعمير المساجد بالعلم والعبادة ليل نهار إذا وجد فيها الدرس. والمساجد التي لاتوجد فيها درس تغلق أبوابها مع الصلاة المكتوبة غالبا والتي يدرس فيها العلوم مفتوحة كل وقت أمام كل طالب.

ومنها قلة المؤنة في الاشتغال بالعلم لأن المسجد مسكن الطلبة وقاعة درسهم والبيوت حوله مطعمهم فلا حاجة إلى المباني الشامخة للسكن ولا إلى المطبخ لمأكلهم ومشربهم ولا يتحمل تكاليف باهظة في تهيئة هذه الأسباب المهمة. ومنها بيئة المساجد الهادئة تماما لأنها لائقة لإفادة واستفادة العلم الشرعي وآلاته والحياة المثالية التي في أونة التعلم في المساجد يسبب لاستقبالهم الزاهر وهم يمثلون حياة السلف الصالحين متواضعين لله تعالى ولا يستحيون من زي العلماء بل يقتدرون السنة المطهرة في جميع سيرهم وسلوكهم.

ومنها ان الدروس المسجدية وسيلة عظمى للدفاع عن البدع المنتشرة والضلالات الفاشية في البلاد. وجدير بالملاحظة أن الدرس في المساجد شعار أهل السنة والجماعة ولايوجد درس بمثل هذا النمط تحت إشراف المبتدعين. ومنها الاعتكاف مع الاستفادة ويتمكن لساكن المسجد متعلما الاشتغال بالعلم الذي هو من أفضل الطاعات وأولى ما أنفقت فيه نفائس الأوقات مع الاعتكاف طول الحياة الدرسية فيكون أعظم فضلا وأكثر ثوابا ممن تعلم خارج المسجد بلاتعب ولا مؤنة.

ومنها الصحبة التي مضت سنة الله تعالى لإصلاح الخلق من صحبة الأصاغر للأكابر كصحبة الأمم لأنبيائهم وصحبة المريدن لشيوخهم وصحبة التلامذة لأساتيذهم. ففي الدروس المسجدية الدرجة الثالثة من الصحبة المذكورة التي اعتنى بها سلفنا الصالح من لدن زمن النبوة إلى عصرنا هذا. ومنها التزكية التي أشار إليها قوله تعالى "هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ..."(الجمعة٢) وفي الدرس يرشد الأستاذ الطلبة ويزكيهم ويربيهم في عباداتهم وآدابهم كما يربيهم ويرشدهم في تعلمهم وللمدرسين الربانيين يد طولى في إنشاء جيل متمسك بالكتاب والسنة.

ومنها إقامة الجماعة التي هي فرض الكفاية وإذا كان الدرس في المساجد لا حاجة إلى إغلاق أبوابها ولا يفوت فيها جماعة في الصلوات الخمس. ومنها أن التدريس في المساجد يجمع قليل العقل وكثيره ومتوسطه لا يرد أحد عن دخول الدرس لقلة عقله أو ضعف فهمه. وما ردّ نبي من الأنبياء أحدا طلب منه العلم وكانوا يتكلمون الناس على قدر عقولهم، والعلماء كذلك لأنهم ورثة الأنبياء كما في الحديث النبوي.

ومنها إظهار شعار الإسلام لأن المتعلمين إذا انتشروا في المحلة لأجل طعامهم وبرامجهم يمثلون حياة السلف الصالحين فيظهر فيهم شعار الدين الإسلامي.

ومن أجل ذلك كله على المسلمين إدامة هذه الحركة الشريفة المباركة وإزالة العوائق من سبيلها والمساهمة فيها ماديا ومعنويا. وأما المعاهد الجديدة الجامعة بين العلوم الدينية والمادية لا تقع موقع الدرس أبدا، وإن كانت مقتضى العصر الجديد. ونتأكد أنه لابديل للدرس المسجدي أي معهد دراسي.

المنهج التعليمي في الدروس

تستهدف الدروس في المساجد نشر الدعوة الإسلامية بالعلوم الشرعية وإنشاء العلماء الربانيين البارزين في شتى الفنون، ولهذا الغرض الجليل يتبع كل درس مناهج عامة لايختلف فيها المدرسون غالبا. منها المنهج التعليمي الذي ينقسم إلى ثلاث مراحل – الابتدائية والثانوية والنهائية – ومدة الدراسة حسب هذا المنهج تستغرق ما بين ٧-١٠سنوات من ابتداء المرحلة الأولى، والعام الدراسي عبارة عن فترة ما بين ١٠شوال و١٠من شعبان والإجازة تكون غالبا سوى أيام الجمعات ١٠أيام بمناسبة عيد الأضحى المبارك وأربعة أيام بعد الإمتحان النصف السنوي في ربيع الأول. ولا يخلو يوم عن الدرس في غير هذه الأيام إلا بعذر قهري ويستأهل الطالب عند إتمام المرحلة الأخيرة للالتحاق في الجامعات والكليات للسند والشهادة.

وأما العلوم المادية التي تحتاج إليها الداعي من اللغات المختلفة والتدريب على الحاسوب فيهتم بتعليمها المدرسون للتمشي مع نداء العصر ولأن لايكون درسهم مندرسا. ومن المستحيل أو من البعيد جدا أن يبرز أحد في علمي الدين والدنيا معا على السواء إلا بعض أهل العنايات. والمنهج الدراسي في حلقات المسجد شامل على الفنون العقلية المتنوعة التي تحتاج إليها العالم الداعي في المستقبل.

أركان الدروس المسجدية

١. المسجد: هذا هو مقر الدرس كما ينسب إليه، وقد بنيت المساجد القديمة على شكل يناسب تماما للدرس بطوابق وغرف لسكن الدارسين والمدرس. ولابد في المسجد من مكتبة ضخمة حاوية على كتب مفيدة وفي خارجه من المرافق الحيوية للنازلين في الدرس.

٢. أهل المحلة: هم المضيفون للمدرس والمتعلمين راغبون في الدرس مشاركون فيه علما وعملا ونية، وقد اعتنى الأمراء الصالحون قديما وحديثا بشأن الدرس. ففي أكثر المحلة توجد أوقاف خاصة للدرس من جهة الأغنياء السالفين. وجدير بالذكر

أن الأخوات المسلمات لهن عمدة عظيمة في إدامة الدرس. لأنهن لعبن دورا هاما في تهيئة الأطعمة لساكني المساجد جيلا بعد جيل قاصدات ثواب الآخرة شكر الله سعيهن.

٣. المدرس: المدرس ركن مهم من أركان التدريس في المساجد يجب أن يكون عالما أخرويا لايريد بعلمه عرض الحياة الدنيا وماهرا في شتى الفنون ومرشدا للطلبة وأهل المحلة وأسوة لهم بأفعاله وأقواله وأحواله ويكون تعداد المدرسين وفقا بعدد رؤوس المتعلمين.

٤. الطلبة: هم الذين يرغبون في الاستفادة من المدرس، ولا يشترط عدد خاص في الطلبة بل العادة أن لا ينقصوا نقصا يعاب بالنسبة إلى المحلة التي يدرس فيها غالبا، ولا تعطّل المساجد عن الدرس ولو كان عدد الطلبة ضئيلا جدا وينجبر غيوبة الطلبة الغرباء بإرسال أهل المحلة أولادهم إلى الدروس.

وتوجد جمعية طلابية في كل درس تعقد مجالس أدبية أسبوعية ومحاضرات خاصة شهريا حول حاضر العالم الاسلامي والتيارات الفكرية ومقارنة الأديان والحضارة الاسلامية وعلم النفس والطب وغيرها مما ينفع المتعلم لخدماته المستقبلة ومن نشاطات الجمعية إصدار المجلات المخطوطة شهريا وإجراء المحاضرات الدعوية في المساجد يوم الجمعة، وتوعية أهل المحلة بإصدار كتب نافعة وتوزيع الكتب الإسلامية في المكتبة الحاوية على كتب إسلامية .

تواجه حركة التدريس في المساجد تحديات عديدة ومشاكل مختلفة في وقتنا الحاضر أهمها قلة رغبة الناس في هذه الطريقة القديمة لأنهم لايرسلون أولادهم إلى الدرس ولا يحب الطلبة أن يلتحقوا بالدروس ولو كان آباءهم مدرسين ماهرين في حقل الدرس ظهر هذا الموقف المحزون في مجتمعنا بعد ما تم بناء المؤسسات الجديدة بأسماء انجليزية واجتذب إليها بواسطة الوسائل والإعلانات المستمرة فلا يرغب الناس إلا فيها ولا يحرصون إلا عليها. ومنها التقدم المالي الذي بدا بعد التسعينات مال أكثر الناس إلى المال وزينة الدنيا ونسوا مآلهم في الآخرة. ولو نظروا في الدنيا وزوالها لرغبوا في الدرس وحرصوا عليه "ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب. (سورة الطلاق).